الفصل السادس

شهداء الحقيقة

تؤكد باربي زيلزر[1] أن إلحاق أدوات التحقيق الإنساني مثل الدراسات السردية والإنسانية في عملية التحليل الصحفي واستخدامها فيها، يساهم في تمحيص مهنة الصحافة، وكذلك في إظهار كيفية بناء سلطة هذه المهنة من أجل شد أعضاء هذه الجماعة إلى بعضهم بعضاً. ومع افتراض أن الخطاب يشكل العالم الاجتماعي وأنه بحد ذاته، وفي الوقت نفسه، أساس للممارسات الاجتماعية الأخرى[2]، فإنني سأسعى إلى تبيان أن النصوص الجديدة هي رسم لحدث الحرب، في الوقت الذي تشكل هذه النصوص انعكاساً لهوية الصحفية وممارساتها.

يركز التحليل التالي بوجه خاص على عملية تهجين الأدوار والخطابات، كما هو مبين في النصوص المقتبسة من أربع من الصحف المهاجرة كنماذج لوسائل الإعلام المهجنة. يهدف هذا التحليل إلى تقديم أمثلة عن تهجين الأدوار (المراقب الموضوعي والشارح لما يجري

في الواقع). يؤدي المراسلون (أو المؤسسة الإخبارية ككل) كما تبين هذه النصوص الإخبارية، دور الوسطاء بين مصادر الأخبار من جهة، وبين جمهور الأخبار من جهة أخرى. كما يساهمون في توفير أدوات مهمتها تسكين الواقع الاجتماعي بواسطة استعمال "ملصقات من قصاصات حول أحداث"[3] جرت في مناطق متفرقة من العالم، وتم تجميعها ضمن وتيرة مشتركة. تساهم النصوص الإخبارية إذاً، في تماسك الرواية الصحفية كمهنة[4].

يعتمد التحليل التالي في معرض اتخاذه المسار الخاص به الرأي القائل إن الهوية تتشكل في أثناء عمليات التشابه والاختلاف[5]. وهذا يعني أن الصحفيين العرب يمكن أن تمنح لهم بشكل استطرادي هوية واحدة ذات سمات محددة يفترض أنها تربط بين العرب جميعاً، في الوقت الذي توضع هذه الهوية مقابل (الآخر) المناقض؛ أي بصفتهم صحفيين غير غربيين. وهكذا، فلكي تثبت هذه العلاقة موقعها الذي تحدده السمات المشتركة، فهي بحاجة إلى أن يتم وضع تعريف لها مقابل هوية (الآخر). يناضل هؤلاء الصحفيون إذاً من أجل "تثبيت" هذه الهويات "وربطها فيما بينها ضمن علاقة محددة مع الآخرين." يترادف كل موقع من المواقع المخصصة للصحفيين مع جملة من القواعد والتوقعات لما يمكن أن يفعلوه أو يتفوهوا به. وبما أن الصحفيين "مشتتون" من خلال امتلاكهم عدداً كبيراً من الهويات المختلفة – فمنهم الصحفي والمرأة والمتعلم والوطني – فإن ذلك يزيد من حدة الصراع في خطاباتهم.

عملياً، يمكن أن يمنح مهنيو الأخبار العرب هوية "الصحفيين" التي تتسم بسمات محددة، وتربط عالمياً فيما بينهم وبين آخرين يعملون في المهنة نفسها؛ في الوقت الذي ترسم الحدود بين الصحفيين بحسب موقع كل منهم في الهرمية المهنية العالمية. تستند الهوية المهنية إلى "جدلية التعريف: أي كيف نعرّف أنفسنا، وكيف يعرّفنا الآخرون؛ هذا بالإضافة إلى التفاعل المستمر بين الجانبين في عملية التعريف الاجتماعي"[6].

ما أود التأكيد عليه في التحليل الآتي هو الوسائل التي بواسطتها "يمكن للتصنيف الخارجي أن ينظر إليه بصفته تصنيفاً شرعياً،" أي كيف يمكن للصحفيين العرب أن يتبنوا الهوية نفسها التي حددها لهم نظراؤهم الغربيون في الوقت الذي يناضلون من أجل إعادة موضعة هذه الهوية، ومن ثَمَّ مقاومة فكرة وضعهم ضمن بوتقة لا سبيل لهم للخروج منها. وكما أؤكد في وقت لاحق من هذا التحليل، فإن بعض المحطات الإعلامية العربية يمكن أن تقوم بنشاط ملحوظ من أجل إطلاق أوصاف جديدة على الصحافة العربية. والمهم في هذا الصدد يتجلى في مسألتين: هما الزمن والفضاء[7]، مثل موقع الصحفيين العرب إزاء الصحفيين الغربيين. وكما سأبين لاحقاً، فإن القصص الإخبارية تظهر حركة دينامية في تنقلها من فضاء إلى آخر، ومن زمن إلى آخر؛ ولقد أصبحت هذه الدينامية في واقع الأمر جزءاً لا يتجزأ من ملامح الدور الحديث الذي يضطلع به كل من الصحفي العربي والمراسل الصحفي العربي. بالإضافة إلى ما تقدم، يشكل استحضار بعض التواريخ التذكارية، كما سأبين لاحقاً، عاملاً حاسماً في تأييد رواية إحدى "الجماعات التفسيرية" العالمية من الصحفيين.

ولكـي يكون بالإمـكان حل الجدل الدائر حـول مفهوم التعريف بين الصحفيين العرب والغربيين، فإنني أشير إلى الحالات التي تمت العودة فيها إلى المؤسسات الإخبارية العربية أو الغربية في النصوص الإخبارية العربية. يتم تصنيف هذه الحالات تبعاً للدور المناط بالصحفيين العرب أو الغربيين؛ أي بصفتهم كلاب حراسة. تتجلى إحدى النتائج المباشرة لهـذا النوع مـن التحليل، كما سـأظهر تالياً، في تحـدي نظرية الهيمنة كما ظهرت في الدراسـات المتعلقة بوسائل الإعلام العربية. فالهيمنة لا تقتصـر من وجهة نظري على الاحتكار المتمثل في الممارسات التي تقوم بها بعض وكالات الأنباء العالمية فيما يتعلـق بعملية جمع الأخبار. لكن الهيمنة تتبدى في السـلطة التي توزع توزيعاً غير متوازن بين الصحفيين العرب والغربيين بالرغم من أن الطرفين ينتميان بصـورة رئيسـة إلى جماعة تفسـيرية واحدة. إضـافة إلى ذلك، يحدد توزع السـلطات بين مختلف المؤسسـات الإخبارية مقاييس الفضـاء الإعلامي العالمي الذي لم تعد تسـيطر عليه قلة من اللاعبين بعـد الآن؛ لكنه مع ذلك، لا يزال يشـهد صراعاً بين مختلف المؤسسـات الإعلامية في الفضائين الشرقي والغربي من أجل إعادة تحديد مواقعها في الميدان العالمي.

أقوم بتجميع مواد التحليل التالي حول موضـوعات محددة أو أدوار بعينها كانت تتحلى بالوضـوح في النصوص الإخبارية، وسيتم استقطاع مقتطفات منها وعرضـها لاحقاً. ولكي أوفر بعض المسـاحة الضرورية، تمت ترجمـة هذه المقتطفـات إلى الإنجليزية بدلاً مـن تقديمها باللغة العربية أولاً ومن ثم، اتباعها بترجمة إلى الإنجليزية. أما الموضـوعات

الإجمالية فإنها متسقة مع الأدوار التي يقوم بها الصحفيون باعتبارهم رواة موضـوعيين للواقع، ومحققين يجهدون من أجـل إظهار الحقيقة، كما تمت مناقشة هذا الأمر في الفصل السابق.

أسارع هنا إلى التأكيد على أن النصوص الإخبارية التي تم انتقاؤها كنمـاذج في هذا المجال يمكـن أن تحلل في واقع الأمـر بطرق لا تعد ولا تحصـى. لكنني اخترت أن أقصـر هذا التدريب على دور الصـحفيين (العـرب والغربيين) كما هو مبين من الزاوية النصـية. يظهر التحليل التالي بشكل عام انتشار ثلاثة أدوار بالتحديد، كما هو مبين في المقاطع التالية. تتراوح هذه الأدوار بين 1) دور المشاهد و2) المدقق، و3) شهيد من أجل الحقيقة.

كما سأبين فيما يلي، فقد تمثلت هذه الأدوار في النصوص الإخبارية ليسـ فقط مـن أجل أن تعكس هوية الصـحفيين المحليـين مقابل هوية الصحفيين القوميين في الميدان الصحفي العربي؛ بل من أجل أن تعطي إشـارة إلى موقـع كلا الطرفـين إزاء نظرائهم العالميـين كما في محطة CNN. أبين أيضـاً كيف انتشـرت هذه الأدوار في الصـحف التي تمت دراسـتها وتحليلها، حيث تبين أن اثنتين من تلك الصحف تبدو وكأنهما تفضلان الدور الأول، بينما بدا وكأن الصحيفتين الأخريين تركزان على الدور الثاني. إلا أن جميع تلك الصـحف تبنت الدور الثالث كوسيلة من وسـائل ربط الصـحفيين العرب مع نظرائهم في البلدان الأخرى ضمن جماعة تفسيرية واحدة.

الصحفي بصفته مشاهداً

تتمثل إحدى أهم مهام الصحفي في استعراض "واقع" الحرب، وتوثيق مسار الأحداث؛ بالإضافة إلى التركيز على الضحايا والانتهاكات التي تحدث في أثنائها. تُعَدُّ عملية التوثيق شرعية من خلال استعراضها للتفاصيل والأرقام؛ على سبيل المثال، تحديد الوقت الدقيق الذي استغرقته قوات التحالف من أجل قيامها بالتحرك، والحجم الدقيق للقنبلة، والتاريخ والزمن، وهكذا. وكما أشار غامسون، فإن "الحقائق ليس لها معنى بحد ذاتها. إنها تكتسب معناها من خلال وضعها ضمن إطار أو قصة يتم ترتيبها وإعطاؤها اتساقاً، يتم في أثنائه اختيار بعضها من أجل التأكيد عليها بينما يتم إهمال بعضها الآخر"[8]. إن استخدام الحقائق والأرقام يشكل في الواقع واحدة من الاستراتيجيات الموضوعية في عملية نقل الأخبار؛ وقد أظهرت الصحف التي تضمنتها هذه الدراسة بعض أوجه الشبه في استعمال "الحقائق البادية للعيان" كجزء لا يتجزأ من عملية قيام تلك الصحف بنقل الأخبار. هذه الحقائق والأرقام تدل على مدى حيادية المراسل الإخباري أو الصحفي الذي يعمل بصورة جزئية كمعلق على الخبر، ولكنه أيضاً يعمل بشكل جزئي بصفته "كاتب اختزال" ينقل التفاصيل الدقيقة لما يجري للقارئ كما هو مبين في الفقرة التالية:

صحيفة الشرق الأوسط (9 نيسان، أبريل، 2003)

قال مسؤول أمريكي إن وكالة الاستخبارات الأمريكية تلقت معلومات من "مصدر في بغداد" يؤكد أن صدام وولديه

سـوف يجتمعون بمسـؤولين أمنيين ومخابراتيين في مبنى بحي المنصـور. وبعـد خمس وأربعـين دقيقة لتلقي هـذه المعلومات، أطلقت القيادة الأمريكية الوسـطى في قطر صاروخاً من طراز B1 يحمـل أربـع قنابل زنة كل واحـدة منهـا 2000 رطل على المبنى في الساعة الثالثة عصراً يوم أول أمس بالتوقيت المحلي. وقال المسؤول: "إذا كان صدام في ذلك المبنى فإنه على الأرجح في عداد الأموات الآن". ووصـف المسـؤول هذه المعلومات بأنها "الأكـثر دقة" حول صـدام وولديه منذ بدايـة الحرب، حيث وقعـت غارة أخرى على مجمع سـكني مدني آخر في بغداد قيل إن صـدام وولديه كانوا يختبئون فيه في 20 آذار، مارس. وقال أيضاً إنه لا بد من انتظار يوم أو اثنين قبل التأكد من نتائج هذه العملية، وإن الغارة وقعت بعد تتبع اتصالات قام بها قصيّ.

يعيد الصـحفيون هنا سـرد حادثة الإطلاق بأقصى ما يستطيعون مـن الأمانـة؛ فقد ذكـروا على سـبيل المثال، حلقـة القيـادة: "القيادة الأمريكية الوسـطى في قطر" بدلاً من مجرد الإشـارة إليها باستخدام عبارة "القوات الأمريكية"، والتدرج في احتسـاب الخطوات التي قامت بها هذه القيادة: أولاً، تلقت المعلومات، ومن ثم تحركت فوراً (بعد خمس وأربعـين دقيقـة)؛ وبعدهـا أطلقت صـاروخاً من طـراز B1 على مبنى بعينه وفي وقت محدد (الثالثة عصـراً بالتوقيت المحلي). تم الإسـهاب في الاقتباس من تصـريحات المسؤول، وهو ما أضفى نوعاً من الشرعية على التقرير: "إذا كان صدام في ذلك المبنى فإنه على الأرجح في عداد الأمـوات الآن". هذه الحادثة تم ربطهـا بحادثة أخرى في أثناء الحرب

"قيل إن صدام وولديه كانوا يختبئون فيه"، وقد تم تأريخ هذه الحادثة من أجل التأكيد على دقة التقرير (20 آذار، مارس). باختصار، هناك بعض التفصيلات التي اختيرت من أجل إضفاء مصداقية على التقرير الصحفي في وصف العمليات العسكرية إلى ما هنالك: عدد الأشخاص المصابين أو القتلى، ونوع الطائرات (A 10 على سبيل المثال)، ووزن القنبلة، والمسافة الدقيقة (بالكيلومترات) والتوقيت (خلال دقائق).

المعرفة إذاً، هي أساس التمثيل "الحقيقي" للواقع، وللمصادر المختلفة الموجودة من أجل الحصول عليها. مهمة الصحفي هي الربط بين المصادر المختلفة، ثم بناء تمثيل حقيقي لمسار الحرب من خلال الإشارة إلى هذه المصادر بالذات. لكن هذا التمثيل هو هرمي بالأساس؛ ذلك أن بعض المصادر تبدو وكأنها معلومات لا يرقى إليها الشك، بينما تلقي بعض المعلومات الأخرى بظلال من الشك على صحتها، وهو ما يستدعي وجوب قيام الصحفي بتدقيق مدى صحتها. في الاقتباس المذكور أعلاه، يتضح أن المصادر العسكرية تقدم معلومات دقيقة وموثوقة بسبب كونها في داخل غمار المعركة. هذه المصادر ليست موثوقة وحسب، إنها أيضاً مصادر قوية لدرجة أنها بالتعاون مع مؤسسات أخرى (كالمخابرات) تستطيع إقامة شبكة من المخبرين لتحقيق هدفها: "تلقت وكالة الاستخبارات المركزية معلومات من (مصدر في بغداد) يؤكد أن صدام... (لاحظوا أن عبارة) "مصدر في بغداد" مكتوبة ضمن إشارتيّ اقتباس مما يرفع من درجة الإثارة في هذه الجزئية الإخبارية.

تبـدأ الجزئيـة الإخبارية المذكـورة أعلاه بتحديد خطـوط التاريخ (الكويت وموسـكو ولندن) وباثنين من الخطوط الثانوية (من مراسلين في واشـنطن وباريـس)، وهي بذلك تبدي كماً مـن الدينامية في تجميع هذه الأخبار وتقديمها. زيادة على ذلك، تتعزز هذه الدينامية بواسـطة الانتقال السـريع بين مناطـق زمنية مختلفة (الثالثة عصـراً بالتوقيت [العراقي] المحلي)، وهي سمة تتصف بها تقارير إخبارية أخرى:

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

في الوقـت الـذي كان العـالم ينتظـر الضـربة الأولى في الحـرب، سـارعت القيادة العراقية لرفض الإنذار... الـذي ينتهي غداً في الساعة الواحدة صباحاً، بتوقيت غرينتش...

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

قال فليشـتر إن موعد الإنذار سـينتهي في الساعة الثامنة من هذا المساء بتوقيت واشنطن (أو الثالثة صباحاً بتوقيت القاهرة)...

... وفي الجانـب العراقي، أعلن التلفزيون الرسـمي أمس عن عقد جلسـة برلمانية طارئة في السـاعة العاشـرة من صـباح هذا اليوم بالتوقيت المحلي...

يشـار إلى أن الإنذار الذي تم توجيهه إلى الرئيس العراقي السـابق ضـمن مناطـق متباعدة زمنيـاً (توقيـت القاهـرة وبغـداد وغرينتش وواشـنطن)، وهـو ما يجعل من الصـحفيين مجموعة مـن "العالميين" الذيـن يتحركون بحرية ويسـر ضـمن مناطق زمنيـة ومكانية مختلفة.

إضـافة إلى ذلـك، تمثل المناطق الزمنيـة الواقع تمثيلاً هرمياً أيضـاً؛ وهكذا، فإن الأحداث يتم توقيتها بحسـب مناطق محددة بعينها (على سـبيل المثال، بحسـب توقيت غرينتش وليس بحسـب توقيت ماليزيا). إن التمثيـل الـذي يلـي هذا التوقيـت إذاً، يؤكـد هذه الهرمية لصـالح النظـر إلى أحداث العـالم من زاوية زمنية بعينها، بدلاً من ترجمة هذه الأحداث إلى مواقيت محلية.

ينعكـس الخـلاف بين هذيـن الزمنين (المحلـي والعالمـي حيث إن الثـاني مكرس لمناطق وفضـاءات زمنية محـددة) أيضـاً في القنوات الفضـائية العربيـة، حيث يعلـن توقيت البرامج المختلفة عادة بحسـب توقيـت غرينتش ومكة المكرمة. إضـافة إلى ذلك، تعلـن قناة الجزيرة أحياناً برامج بتوقيت مكة المكرمة معززة بذلك نقطة مرجعية (عربية) مركزية بالرغم من أنه يقال إن عدداً كبيراً من مشـاهديها ينتمون إلى جماعات تعيش في المهجر.

تتعـزز دينامية التحـرك كمـا ذكرنا سـابقاً، في خطـوط التاريخ المتعـددة والخطـوط الثانوية، مؤكـدة بذلك دور الصـحفيين في إدارة الفضاءات المتعددة. قامت صـحيفتا الشرق الأوسط والحياة على وجه الخصـوص بتعزيز هـذه الدينامية مـن خلال خطوط ثانويـة متعددة (وليـس فقط مـن خلال خطـوط التاريخ)، وقـد أكدتا بذلـك الدور (الجديد) للمراسـلين كمصـادر موثوقة للمعلومـات والمعرفة، وكذلك على اسـتقلاليتهما كمؤسستين إعلاميتين لهما شبكاتهما ومصادرهما الخاصة بهما.

يؤكد النص الإخباري أيضاً هذه السرعة من خلال التحرك الدائم بين فضاء وآخر، كما هو مبين في المقطوعة التالية التي تبدأ بالولايات المتحدة محيطة القارئ بالإنذار الذي وجهه بوش (والذي كان على وشك الانتهاء)، ثم تنتقل إلى فضاءات جغرافية أخرى.

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

> أما بالنسبة لردود الفعل العالمية على خطاب بوش، أصدرت كل من فرنسا وروسيا تحذيراً شديد اللهجة أمس من استخدام القوة العسكرية ضد العراق... من ناحيته، قال الرئيس الفرنسي إن الحرب على العراق غير قانونية... وفي بيجين، قال رئيس الوزراء الجديد إن بلاده لن تتخلى عن جهودها الرامية إلى حل الأزمة العراقية بطريقة سلمية... أما في بريطانيا، فقد استقال وزيرا الصحة والشؤون الداخلية احتجاجاً على السياسة المتشددة لحكومة رئيس الوزراء طوني بلير...

تم نشر هذا الخبر بواسطة خط التاريخ العام (مدن عالمية) وخط ثانوي عام (مراسلو صحيفة الأهرام)؛ وقد عزز هذا من أهمية الهوية المؤسساتية لصحيفة الأهرام بدلاً من التركيز على أسماء مراسلين بعينهم، الذين ينتشرون في فضاءات متباعدة من أجل رصد ردود الفعل على الحدث (وهو في هذا السياق: الإنذار). يظهر هذا النص سرعة الانتقال بين فضاءات جغرافية متباعدة من الولايات المتحدة إلى فرنسا إلى الصين إلى بريطانيا ("قال الرئيس الفرنسي... وفي بيجين قال رئيس الوزراء الجديد... أما في بريطانيا استقال... وزيرا...") إن

عبارات مثل "وفي بيجين" تستخدم من أجل القيام بوظيفة مزدوجة: فهي توفر شكلاً من أشكال التماسك في الوقت الذي تشير إلى نقلة في الفضاء والموضوع. فيما يلي مثال آخر:

الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

تحرك آلاف من المقاتلين في وحدات الحرس الجمهوري و"فدائيي صدام" من بغداد... لوقف تقدم القوات الأمريكية باتجاه العاصمة العراقية. وفي الوقت الذي دارت فيه معركة شرسة يوم أمس من أجل السيطرة على جسر قرب مدينة النجف، اعترف البنتاغون أن القوات العراقية دمرت عدداً غير محدد من الآليات... وفي إشارة إلى ازدياد حدة الضغوطات على القوات الأمريكية، أعلن البنتاغون أن الفرقة الرابعة سوف تتحرك اليوم من الولايات المتحدة في طريقها إلى العراق. من ناحية أخرى، علم أمس أن محامين وخبراء قانونيين يرافقون القوات الأمريكية لمناقشة فرض أحكام الطوارئ. من ناحية أخرى، رفض متحدث باسم الإدارة الوسطى في القوات الأمريكية التعليق على الهجوم الصاروخي على حي شعبي شمال شرق بغداد...

في المقطوعة الواردة أعلاه، يشير التقرير الإخباري إلى نقلة بين الفضاءات الجغرافية والزمنية. فهو يبدأ من مشهد حالي في بغداد، حيث يستعد المقاتلون العراقيون لمواجهة القوات الأمريكية، ثم يتحرك باتجاه الماضي مذكراً القارئ بمعركة وقعت قرب مدينة النجف، ويقدم تعليقاً من البنتاغون في الولايات المتحدة الأمريكية.

في اللغة الإنجليزية، يمكن استخدام كلمات مثل "لا يزال" و "لكن"، أو عبارات الجر كدالات أساسية من أجل تقديم جمل استدراكية، أو من أجل إحداث نقلة في الموضوع أو المشهد. أما في اللغة العربية، من ناحية أخرى، فلكي يتم التأكد من وجود التماسك بين الجمل في النصوص الإخبارية، لا يكتفي المراسلون باستعمال حرف العطف "و" كوسيلة وحيدة لتحقيق ذلك. تدل عبارات مثل "في بيجين" و "في بريطانيا"، على استراتيجيات التماسك التي يتبعها الصحفيون والمتمثلة في الانتقال إما إلى موضوع آخر ذي صلة، أو الانتقال إلى متحدث آخر أو مشهد آخر. تم تقديم أحد الشروح الكفؤة حول استخدام هذه العلامات في دراسة لغوية أجريت مؤخراً حول لغة الخطاب الإخباري باللغتين العربية والإنجليزية[9]. تشير هذه الدراسة إلى بعض الملامح المهمة التي تسم هذه العلامات مثل "من ناحية أخرى" و "من جانبه/ها" والتي ترد في بداية الجملة. إن وجود مثل هذه العبارات ليس مجرد تنوع أسلوبي؛ بل تفرضه في واقع الأمر بلاغية الخطاب الإخباري بصفته نمطاً، إلى حد أن محاولة حذفها يمكن أن ينتج عنه خلخلة في روابط التماسك داخل النص الإخباري.

إن عبارات مثل "من ناحية أخرى"، أو "في إشارة إلى ازدياد حدة الضغوطات" (كما هو مبين أعلاه)، تدل على سرعةٍ دينامية في الانتقال من الحدث والتعليق عليه إلى حدث وتعليق آخرين؛ وهذا يؤكد دور الصحفي "كمشاهد"، أي كشخص يراقب الأحداث من علٍ ويدون مجرياتها؛ ويحافظ في الوقت نفسه على القدرة على التحرك باتجاه

الخلف والأمام في المكان والزمان من أجل أن يضيف إلى هذا الرصد للواقع. هذه الفضاءات التي يتم تحديدها سلفاً، تقتصر على الميادين السياسية والعسكرية، وعلى جمع المعلومات والتعليقات من أصوات لها ثقلها ووزنها هناك. لكن الصحفيين ليسوا موجودين هناك فقط من أجل نقل ما يصرح به "المسؤولون"، بل من أجل طرح علامات استفهام حول المدى الذي يمكن الاعتماد فيه عليهم. هنا تتشكل هوية الصحفي كمدقق و"كلب حراسة".

الصحفي بصفته مدققاً

قبل انتهاء مدة الإنذار الذي تم توجيهه إلى صدام وعائلته، أعلنت العائلة المالكة السعودية أنها لن تشارك في التحالف الذي شكلته الولايات المتحدة، مبررة ذلك كما ورد في خطاب رسمي موجه إلى الأمة (كما ورد في صحيفة الشرق الأوسط في التاسع عشر من شهر آذار، مارس، سنة 2003) برغبتها في حماية الشعب السعودي والمصالح السعودية. ومع ذلك، فإن البيانات الصادرة عن العائلة المالكة السعودية لم يتم تقبلها بمعناها الظاهري، كما أثيرت شكوك حول مصداقيتها.

صحيفة القدس العربي (19 آذار، مارس، 2003)

سارعت الرياض إلى الإعلان أنها لن تشارك في الحرب التي يجب وضع حد لها من خلال تطبيق القرار 1551.

إلا أن تقارير أمريكية إعلامية وصحفية أكدت أن الطائرات الأمريكية سوف تستخدم القواعد الموجودة في السعودية في

obeikandl.com

المعـارك، وأن الأراضـي السـعودية سـتكون مشـرعة من أجل العمليـات الإنسـانية واللوجسـتية للقـوات الأمريكيـة داخـل العراق.

وقالـت التقارير إن القـوات البريطانية سـوف تتحرك باتجاه البصـرة، وأنها سـوف تبسط سـيطرتها على منطقة الجنوب بأسـرها، في حين أن القوات الأمريكية سـوف تتحرك مباشرة باتجاه بغداد...

التصـريح الـذي صـدر عـن "الرياض"، وفي الرياض يتناقض مـع التقاريـر الإعلاميـة الأمريكية التي أكدت مشـاركة السـعودية في الحرب من خلال السـماح للقوات الأمريكية بالعمل من داخل الأراضي السـعودية. وهكذا فقد انتقلت المصـداقية من البيانـات التي أدلى بها السياسـيون، إلى التقارير التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية، معززة بالتـالي، حجم رأسـمال هذه الأخيرة كمصـادر للمعلومـات الموثوقة[10] (التـي تتجاوز أحياناً أي شـكوك حول نوع المصـادر أو الخطابات التي تسـتقي منها هذه المعلومات). وهكذا، تمت الإشـارة إلى تقارير وسائل الإعـلام العالميـة والاقتباس منها مـن دون التأكد من مصـداقيتها أو الخطاب الذي كانت تصـوغه. وبالرغم من أن صحيفة القدس العربي تشـكك أحياناً في التصـريحات الصـادرة عـن المسـؤولين الأمريكيين (انظر المقطوعة التالية) فإنها لم تثر شـكوكاً حول مصـداقية وسـائل الإعلام العالمية مثل CNN و Reuters و AFP و BBC.

صحيفة القدس العربي (27 آذار، مارس، 2003)

قالت محطة CNN التلفزيونية إن أرتالاً طويلة من وحدات الحرس الجمهوري العراقي غادرت بغداد مساء أمس (الأربعاء) متوجهة نحو القوات الأمريكية المتمركزة قرب مدينة النجف.

وقالت المحطة استناداً إلى مراسلها الذي يرافق الفرقة السابعة: "إن رتلاً طويلاً من ألف من الوحدات العراقية المؤللة بما في ذلك العربات والمدافع قد غادرت بغداد متوجهة نحو مدينة النجف".

التقارير التي ذكرتها محطة CNN (استناداً إلى مراسلها) قدمت رأياً "لمُشاهد" موثوق لمشهد الحرب كما حدثت في أرض المعركة، وكما خططت لها عقول الإستراتيجيين. عرضت صحيفة الأهرام رأياً مشابهاً لما عرضته صحيفة القدس العربي:

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

في خضم التنبؤات المتزايدة حول توقيت شن الحرب، توقع المراسل العسكري لمحطة BBC أن العمليات العسكرية سوف تبدأ في الساعات الأولى من يوم السبت القادم، وقال إن القيادة العسكرية تفضل تأجيل موعد الضربة إلى حين انحسار ضوء القمر واشتداد الظلمة في الليل؛ لأن ضوء القمر عندما يكون بدراً في الأيام القليلة القادمة ليس مناسباً من حيث التوقيت للعمليات الأرضية. وقال المراسل إنه من غير المناسب البدء في

obeikandi.com

العمليات العسكرية يوم الجمعة لأنه عطلة المسلمين الدينية. بالتالي، فإن أكثر الحسابات دقة التي تأخذ في الحسبان الحال الجوية والعواصف الشديدة المتوقعة، تشير إلى أن فجر يوم السبت سيكون توقيتاً مناسباً للبدء في هذه العمليات.

هنا، يقوم مراسل BBC بإجراء حسابات، ويوازن بين المعلومات الواردة من أجل صياغة تكهن حول سيناريو مستقبلي ("توقع المراسل العسكري لمحطة BBC أن..."). المعلومة التي أوردها تم قبولها من دون أي تشكيك بمصداقيتها؛ لأن ما أتى به لم يكن يستند إلى افتراض محض، بل إلى دراية بالتكتيكات العسكرية، إضافة إلى إلمامه بالتقاليد المحلية ("القيادة العسكرية تفضل تأجيل موعد الضربة إلى حين انحسار ضوء القمر... لأن ضوء القمر عندما يكون بدراً... ليس مناسباً من حيث التوقيت للعمليات الأرضية"). إضافة إلى ذلك، يوازن المراسل بين الخطة السياسية المعلنة للبدء بالعمليات العسكرية بعد انتهاء المدة الزمنية للإنذار مباشرة وبين معرفته بالتقاليد المحلية: نظراً لأن الإنذار ينتهي بحلول "يوم الجمعة... العطلة الدينية للمسلمين"، فإنه يقرر أن يتجاهل احتمال البدء بالعمليات الحربية يوم الجمعة. بدلاً من ذلك، يطرح تكهناً آخر يستند إلى "حسابات دقيقة" تتضمن العديد من العوامل "التي تأخذ في الحسبان الحال الجوية والعواصف الشديدة المتوقعة"، وهو ما أدى به إلى الاستنتاج أن "فجر يوم السبت" سوف "يكون توقيتاً مناسباً للبدء في هذه العمليات".

تؤدي مصـادر وسـائل الإعلام الأجنبية دور شـاهد العيان في قلب الأحداث، حيث ترسـل مـن هناك إلى الوطن تفصـيلات أحداث تقوم بالكشـف عنها؛ كما أن شـهاداتهم تضـيف إلى عملية استيعاب أسباب شن الحرب التي يتم إيصالها إلى المتلقي عبر التعبيرات الجسدية.

صحيفة الأهرام (26 آذار، **مارس**، 2003)

بعـد ثلاث سـاعات من القتال الشـرس في مدينة الناصـرية، اسـتطاعت قـوات المارينـز الأمريكيـة عبور الجسـر على نهر الفرات... وقال مراسـل APF إن رائحة اللحم البشـري كانت منتشـرة في سـماء المدينة التي تقع على بعد 375 كيلومتراً من بغداد.

... دعا الرئيس العراقي صـدام حسـين القبائـل العراقية إلى مقاومة القوات الأمريكيـة والبريطانية... وحثها في خطاب تم بثه على التلفزيون العراقي...

... قلل المارشـال الجوي البريطاني برايان باريدج من احتمال تحقيق نصـر عسكري سريع، ورفض في تصـريحات أدلى بها إلى محطة BBC نية بريطانيا في زيادة عدد قواتها...

تعززت شهادة مراسل APF بالتجربة الجسدية التي تحدث عنها حول "شم" و"مشاهدة"، عندما كان هذا المراسل يتجول في مدينة الناصرية حيث شـم رائحة "اللحم البشـري"، ورأى الدخان المتصاعد" ينطلق إلى أعالي السـماء؛ وقد أجمل هذه التجربة الجسـدية في الرواية الموضوعية

obeikandl.com

التي ضـمّنها تقريره الصـحفي من خلال إضافة تفصـيلات على الموقع الدقيق للمدينة ("التي تقع على بعد 375 كيلومتراً من بغداد").

وفي الوقت الذي كان بإمكان وسـائل الإعلام الأجنبية الوصول إلى مصـادر محلية وأجنبية، فإن وسائل الإعلام المحلية من ناحية أخرى، تم اسـتخدامها بشـكل رئيس للقيام بمهمة قنوات اتصال، أو التصرف كمنادين متجولين في البلدة من أجل نقل رسـائل يجب إيصـالها إلى المواطنين. وهكذا فقد اسـتخدم صـدام حسين وسـائل الإعلام المحلية مـن أجـل بـث رسـائل للقبائـل العراقيـة ("حثهـا في خطـاب تم بثه علـى التلفزيون العراقـي")، كما اسـتعملها كمنصـة أراد من خلالها استنهاض همم العراقيين. كما استخدمت إستراتيجية مماثلة من قبل ساسة عراقيين آخرين:

صحيفة القدس العربي (27 آذار، مارس، 2003)

... أعلـن الناطق [العراقي] باختصـار على شاشـة التلفزيون العراقي حول العمليات العراقية خلال الأربع والعشـرين ساعة الماضـية، أن طائرة بريطانية أسـقطت بالقرب من البصـرة، وأن صـاروخاً من طـراز (صـمود) أطلق على قاعدة السـالم الجوية في الكويت.

ظهر الناطق العراقي على شاشـة التلفزيون، بالرغم من أن ظهوره كان وجيـزاً من أجـل الإعلان عن آخر مجريات الحـرب، وعن التقدم الـذي تقوم به المقاومة العراقية، مسـتخدماً وسـائل الإعلام كمنصـة

صـحفية يخاطب من خلالها الأمة. أدت بعض وسـائل الإعلام العربية القومية الدور نفسه:

صحيفة القدس العربي (19 آذار، مارس، 2003)

... وقـال [ناجي] صـبري [وزيـر الخارجية العراقي السـابق] في مؤتمر صحفي عقده في العاصمة العراقية، الذي بثته قناة الجزيرة الفضـائية على الهواء مباشرة، "لم نطلب مساعدة من أحد، لكننا نقول للدول العربية إن أمنها مهدد".

عقد وزير الخارجية السابق مؤتمرات صحفية أثارت اهتمام وسائل الإعلام الإقليمية كقناة الجزيرة على سبيل المثال، التي نقلتها على الهواء مباشرة. لا بد من الإشارة إلى عبارة فيها شيء من الحذر هنا: يرى بعض الباحثين[11] أن رغبة وسـائل الإعلام الإخبارية، وعلى الأخص التلفزيون، في نقل المؤتمرات الصـحفية على الهواء مباشـرة مؤشـر على استخدام وسـائل الإعلام لبـث القيم والأفكار المهيمنة. لكن الصـحفيين العاملين في القنـوات الفضـائية العربيـة يبررون الاتجـاه نحو إذاعـة المؤتمرات الصـحفية كجزء من وظيفة السـلطة الرابعة التي تقضـي بمنح مساحة للاعبين السياسـيين من مختلف المشـارب والتوجهات. فقد قال الحبيب الغريبـي، المذيع في محطة أبو ظبي إن محطته تسـعى إلى نقل المؤتمرات الصـحفية العربية والأمريكية على الهـواء في أثناء فترة الحرب، موفرة أوقاتـاً متسـاوية لـكلا الطرفين من أجـل التأكيد علـى حيادية المحطة. الرأي نفسـه أكده المذيع فيصل قاسم من محطة الجزيرة، حيث قال إن جزءاً من مهمة القناة هو توفير منبر لجميع المتحدثين[12].

باختصار، بينما يستخدم السياسيون العرب وسائل الإعلام المحلية من أجل بث المعلومات، فإن وسائل الإعلام الأجنبية تقوم بتدقيق البيانات والتصريحات الصادرة وإجراء تقويم لها. وفوق هذا وذاك، يمكن أن يشير كل ما تقدم إلى الهرميات الموجودة داخل "الميدان الصحفي،" ومن ثَمَّ، فإن الخطابات السياسية ليست هي وحدها التي تنساب إلى داخل هرمية السلطة (حيث إن التصريحات التي يدلي بها سياسيون أمريكيون تحتل مرتبة أعلى من التصريحات التي يدلي بها نظراؤهم العرب)، بل إن الخطابات الإعلامية أيضاً محكومة بالسلطات داخل الميدان الصحفي العالمي نفسه. يمكن أن تتبوأ الخطابات الإخبارية الصادرة عن محطة CNN موقعاً أكثر أهمية في هذا الميدان بالمقارنة بالخطابات التي تبثها المحطات الإعلامية العربية – من هنا نستطيع فهم السبب وراء الاستشهاد بهذه الخطابات في أغلب الأحيان كمصادر موثوقة للمعلومات. يرى فندي أن وسائل الإعلام الأجنبية ترتبط عادة "بمعلومات موثوقة" وهذا هو السبب الذي يجعل المشاهدين العرب يثقون بالمحطات الأجنبية مثل محطة BBC أكثر من محطاتهم المحلية أو الوطنية، أو كما وصفها هو بالقول: "ليست المسألة أن العرب لا يثقون بوسائل الإعلام لأنها أجنبية؛ المسألة في حقيقتها هي أن العرب كجميع الناس، يختارون ما يثقون به، وما لا يثقون به"[13].

وبعكس كل من صحيفة القدس العربي وصحيفة الأهرام، كانت صحيفتا الشرق الأوسط والحياة كما أسلفنا، حريصتين على نشر الخطوط الثانوية المزدوجة التي يبعث بها مراسلوهما؛ ومن ثَمَّ فقد

استطاعتا تعزيز الدور الذي تضطلعان بها كجامعتين للأخبار. ولكي يتم تعزيز هذا الدور أكثر فأكثر، تم الاستغناء عن الإشارة إلى المؤسسات الإعلامية الأخرى (الأجنبية)، وكان يشار إلى البيانات والتصريحات الصادرة عن مسؤولين أجانب (أمريكيين) بشكل مباشر في النصوص الإخبارية:

صحيفة الحياة (19 آذار، مارس، 2003)

... أكد البيت الأبيض أمس تصميمه على إرسال قوات التحالف من ثلاثين دولة إلى العراق من أجل نزع أسلحته المحرمة دولياً... وأكد المسؤولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة "أمطرت" الجنود في جنوب العراق بمنشورات تحثهم فيها على الاستسلام...

أعلن في واشنطن أمس أن إدارة بوش أقامت تحالفاً من أجل نزع سلاح العراق على الفور"...

وبدلاً من اقتباس تقارير هذه المصادر بشكل حَرْفي، قام الصحفيون (والمحررون) بتفسير البيانات الواردة كما هو مبين في استخدام عبارة "أكد" ("أكد البيت الأبيض أمس"... "أكد المسؤولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة...")، وقد اقتصرت اقتباساتهم المباشرة فقط على مقاطع مثيرة للجدل في تصريحاتهم ("الولايات المتحدة (أمطرت) الجنود في جنوب العراق بمنشورات...").

كما أن المعلومات المتسربة من واشنطن كانت تنقل بصيغة المبني للمجهول بدلاً من صيغة المبني للمعلوم ("أعلن في واشنطن أمس...")،

بالرغم من أن الأخبار باللغة العربية تبث بصيغة المبني للمعلوم[14]. يلغي هذا أكثر فأكثر، دور المصادر الوسيطة (وسائل الإعلام الأجنبية) في الوقت الذي يقرب هذا صحفيي الحياة والشرق الأوسط أكثر من مصادر السلطة والمعلومات.

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

> كما لوحظت حركة هروب جماعية من مدينة أربيل عاصمة إقليم كردستان العراقي، وكذلك من مدن وبلدات قرب مناطق القتال... وفوق هذا وذاك، قال الناطق الرسمي الأمريكي آري فليتشر يوم أمس إنه ليس لدى واشنطن أي مؤشر على أن صدام سيلتزم بالإنذار...

ترد معظم التصريحات المقتبسة من مصادر أمريكية وهو ما يوحي باعترافٍ بالولايات المتحدة كقوة عسكرية وسياسية. من هنا، نرى أن البيانات والتصريحات الصادرة عن جهات أجنبية مؤهلة أكثر من غيرها لصناعة الأحداث المستقبلية؛ وأهم من ذلك، أن تلك التصريحات يتم التمعن فيها أكثر من التصريحات المحلية التي تبدو متوقعة ولا تحمل في طياتها أي مفاجآت.

يمكن أن تعرض هذه السلطة بطريقة نصية من خلال استعمال الزمن القواعدي، وذلك من أجل الإشارة إلى توزع السلطات بين المتحاورين. تستخدم الصحف العربية مثلاً الزمن الحاضر القواعدي عند الإشارة إلى حديث مباشر يدلي به أحد القادة الأمريكيين،

بينما يستخدم الزمن الماضي القواعدي عند الاستشهاد بما صرحت به القيادة العراقية. يمكن أن تكون هذه إشارة إلى السلطة الممنوحة للقيادة الأمريكية في هذا الصراع، كما يمكن أن تكون جزءاً من الخطاب الذي تستخدمه هذه الصحف من أجل وضع إطار للحرب على العراق. وهكذا، فقد استخدمت صحيفة الأهرام صيغة المستقبل القواعدي في نشرها لتصريحات أدلى بها مسؤولون أجانب:

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

قال الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض، آري فليتشر يوم أمس قبل أقل من أربع وعشرين ساعة من إصدار الإنذار، إن واشنطن لم تلحظ بعد ما يثبت أن صدام سوف يذعن للإنذار، ويغادر العراق. كما أوضح أنه حتى لو وافق صدام وولديه على مغادرة العراق، فإن قوات التحالف سوف تدخل إلى الأراضي العراقية من أجل ضمان نزع أسلحة الدمار الشامل.

وقال فليتشر إن الإنذار سوف ينتهي في الساعة الثامنة من هذه الليلة، بتوقيت واشنطن (أو الثالثة صباحاً بتوقيت القاهرة)، وأن إدارة بوش هي من سيقرر توقيت بدء الحرب.

لدى الحكومة الأمريكية إذاً، الرغبة والقوة لصناعة الأحداث المستقبلية، أي تقرير ما إذا ستقع حرب أم لا، أو تقرير ما إذا كان صدام وولداه سوف يبقون في العراق أم لا، وهكذا. المقطوعة التالية هي مثال آخر يبلغ فيه الناطق باسم البيت الأبيض وسائل الإعلام العالمية السيناريو المستقبلي الذي تقوم بإعداده حكومة الولايات المتحدة الأمريكية:

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

مـن ناحية أخرى، قالت واشـنطن إنهـا لا ترى أي مؤشـر على أن صدام سيلتزم بالإنذار، وأنها تُعِدُّ ذلك "خطأ آخر" يرتكبه صدام إذا لم يغـادر العـراق. وبينما كانـت القوات الأمريكيـة في الكويت تتأهب يوم أمس للهجوم، فقد قال أحد كبار ضباطها إن النصر في العراق سوف يتحقق "في غضون أيام قليلة".

وقـال إن قرار صـدام البقـاء في العراق سـوف يكون "خطـأ آخر يرتكبه صدام حسين"، واستأنف حديثه قائلاً "إن دوري لا يتضمن ذكر أسـماء الدول التي يمكن أن يفر إليها". وقال فليتشر إن قوات التحالف التي شكلتها الولايات المتحدة سوف تدخل إلى العراق من أجل نزع أسلحته، حتى لو غادر صدام العراق.

أمـا السـفير الأمريكي في العـراق، زلماي خليـل زادة فقد قال يوم أمس، إن الوحدات العراقية الكردية سـوف تضـع نفسها بتصرف القيـادة الأمريكيـة في حال شـن عمليات عسـكرية أمريكية ضـد العراق.

هذه سلسـلة من التصـريحات الصـادرة عن واشنطن، وهي تشير إلى مجـرى الأحـداث المسـتقبلية، مقررة ما سـوف يحـدث، ومجرية تقويمـاً للخطـوات التـي قام بها الخصـم ("لا ترى أي مؤشـر على أن صـدام سيلتزم بالإنذار، وأنها تُعِدُّ ذلك (خطأ آخر) يرتكبه صدام"). نسـب إلى أحد المسـؤولين الأمريكيين التأكيد على تحقيق النصر حتى قبل أن تبدأ المعارك ("إن النصـر في العراق سـوف يتحقق")، بالرغم

من أن تأكيده على تحقيق النصر "في غضون أيام قليلة" يبدو مثيراً للجدل كون هذا التأكيد هو الوحيد الذي تم وضعه بين إشارتيّ اقتباس.

أما حلفاء الولايات المتحدة، داخل العراق (زلماي خليل زادة) فقد أقروا بسلطة الولايات المتحدة، مؤكدين عزمهم "وضع أنفسهم بتصرف القيادة الأمريكية".

وهكذا، فإن البيانات والتصريحات الصادرة عن قوات التحالف (حول الإستراتيجية العامة للحرب) قد تم اقتباسها بصيغة زمن المستقبل القواعدي زاعمة أن اليد العليا ستكون لها في مجريات الحرب. كما وعد بوش في الاقتباس التالي جنوده، وكذلك الشعب العراقي أن النظام العراقي "سوف" يعاقب وأن يوم العقاب "ليس ببعيد".

صحيفة الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

> من ناحية أخرى، قال الرئيس بوش يوم أمس إن الحرب على العراق وصلت إلى مرحلة متقدمة إلا أن نهايتها ليست وشيكة. وأضاف مخاطباً الجنود في قاعدة ماكدويل الجوية: "أؤكد لكم وللشعب العراقي الذي عانى طويلاً أن النظام العراقي سوف يخضع للمحاسبة، وأن هذا اليوم يقترب أكثر فأكثر".

باختصار، يتمثل دور وسائل الإعلام الإخبارية هنا في تنظيم جميع التصريحات السياسية المتوافرة ونسجها ضمن سردية دينامية تتحرك عبر الفضاءات وعبر الزمن، وتدعم هذه السردية بتصريحات صادرة عن الخارج (وخصوصاً من الولايات المتحدة). اعتمدت صحيفتا

obeikandl.com

الأهرام والقدس العربي على مؤسسات الوسائل الإعلامية الأجنبية من أجل نقل هذه التصريحات والتعليق عليها وتقويمها، معززة بذلك دور الصحفيين "كمشاهدين." من ناحية أخرى، فضلت صحيفتا الحياة والشرق الأوسط تقديم هذه التصريحات على شكل اقتباسات غير مباشرة من دون أن تذكر مصادر هذه الاقتباسات؛ ومن ثَمَّ التأكيد على دور مراسليهما بصفتهم جامعي أخبار (كما هو مبين في الخطوط الثانوية المتعددة في بداية كل خبر) وتعزيز دور الصحفيين: "مدققين أو كلاب حراسة". لقد تباهى رئيس تحرير صحيفة الحياة السابق باعتماد صحيفة الحياة على مراسليها في تغطية الأحداث العالمية بدلاً من الاقتباس من رزم إخبارية جاهزة تعرضها وكالات الأنباء الرئيسة[15].

الصحفيون بصفتهم شهداء الحقيقة

من خلال التدقيق في استخدام أسلوب العزو في الأخبار باللغتين العربية والإنجليزية في محطة BBC العربية، قدم شيخ الشباب وسويلز[16] عرضاً لاستخدام سمات العزو، ليس بواسطة الاقتباس من المسؤولين العرب، بل بالاقتباس من مصدرين آخرين هما مراسلو محطة BBC، والخبر نفسه كالقول مثلا: "تفيد الأنباء." يظهر هذا الاتجاه في النص التالي حيث تميل الصحف العربية إلى الإشارة إلى نفسها كفاعلة في الأحداث:

صحيفة الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

دخلت (الشرق الأوسط) أمس إلى مدينة صفوان العراقية برفقة قافلة من المساعدات الطبية والغذائية قادمة من الكويت إلى سكان المدينة التي يبلغ عدد سكانها 2000 نسمة تقريباً وهم تحت الحماية البريطانية.

يستلزم ذلك حضور الصحيفة كمؤسسة، كما يتضمن قدرة تلك المؤسسة بشكل عام (وليس الأفراد) على تغطية الحرب. هناك أيضاً احتمال آخر للتأثير الذي تحدثه عملية "مأسسة" دور الصحفي/ الراوي، ويتمثل في إعطاء دفع قوي لموضوعية التقارير من خلال التقليل من الجانب الذاتي عند الصحفيين بصفتهم أفراداً.

صحيفة الحياة (27 آذار، مارس، 2003)

ولكن نائب وزير الخارجية الأمريكي ريتشارد آرميتاج أكد أن القوات الأمريكية "سوف تقوم بكل ما هو ضروري" من أجل قلب نظام الحكم العراقي، حتى لو تطلب الأمر خوض القتال داخل المدن. وقال في مقابلة مع صحيفة الحياة تُنشَر غداً...

أظهرت الدراسات السابقة حول الخطاب الصحفي العربي أن الاستشهاد بالمصادر يزيد من مصداقية التقارير الإخبارية[17]. ومن ثَمَّ تُعَدُّ المقبوسات وسائل لإظهار موضوعية المؤسسة الإخبارية من خلال عرض آراء أو تصريحات أدلى بها أحد الأفراد أو بعض الجهات حول موضوعات بعينها. إضافة إلى ذلك، يؤكد فندي[18] أن الثقة في

obeikandi.com

المجتمعات العربية (والإسلامية) تعتمد على نموذج الإسناد، حيث تقبع سلسلة المصادر وراء تصريحات لها مصداقيتها. وهكذا، فكما أن أحاديث الرسول تروى عبر سلسلة من المصادر الموثوقة، فإن الجمهور العربي يحتاج إلى توثيق المعلومات التي ترد إليه. لكن الإسناد كما تبين سابقاً، لم يشكل إستراتيجية شديدة الأهمية سواء بالنسبة إلى صحيفة الحياة أو إلى صحيفة الشرق الأوسط اللتين تنقلان الأحداث بصيغة المبني للمجهول وأحياناً تستشهدان بمسؤولين أجانب من دون ذكر أسمائهم. ومع ذلك، تؤكد وسائل الإعلام الإخبارية من خلال إضافة الصوت المؤسسي، كما لاحظنا سابقاً، مشاركتها في صناعة الحدث، ومن ثَمَّ فالإسناد يدل على أن المؤسسة هي صاحبة الدور الرئيس.

الصحفيون إذاً، هم لاعبون نشطون يشاركون في الحدث الذي يظهر أمامهم. وبصفتهم شهود عيان، فإنهم يبحثون عن الحقيقة، وهي مهمة قد تصطدم بمصالح بعض القوى السياسية. ففي الثامن من شهر نيسان، أبريل، سنة 2003، على سبيل المثال، تعرض أكثر مائة صحفي يقيمون في فندق فلسطين ببغداد إلى إطلاق النار من قبل القوات الأمريكية، حيث أدى ذلك إلى مقتل ثلاثة منهم. أدان اتحاد الصحفيين العالمي هذا الهجوم، وطالب بتقديم تفسير لما جرى؛ في الوقت الذي أعلنت القوات الأمريكية أن ما جرى كان على سبيل الخطأ. كان الدافع وراء مقتل أولئك الصحفيين بحسب صحيفة القدس العربي هو مخاوف الأمريكيين من أن تقوم وسائل الإعلام بكشف المجازر التي ترتكبها الولايات المتحدة؛ وكان هذا نوعاً من الدلالة الضمنية على

الثقة التي أوليت للمؤسسات الإعلامية الأجنبية والإقليمية، وقدرتها على فضح الخبث السياسي:

صحيفة القدس العربي، (9 **نيسان، أبريل** 2003)

زعم المتحدث باسم القاعدة الأمريكية في السيلية في قطر أن قصف الفندق أتى بعد إطلاق أحد القناصة العراقيين قذيفة (آر. بي. جي.) من بهو الفندق؛ لكنه صحح فيما بعد هذا البيان بالقول إن القناص كان في داخل الفندق.

وبحسب المراقبين، فقد كان الهدف من قصف الفندق، حيث كان يقيم الصحفيون إخافتهم وإجبارهم على مغادرة العاصمة العراقية، وهو ما سيسمح للقوات الأمريكية بارتكاب المزيد من المجازر من دون وجود أي تغطية إعلامية.

ألقيت ظلال من الشك على البيان السياسي الأمريكي الذي تمت الإشارة إليه بوصفه "زعماً"، كما تم التأكيد أكثر فأكثر على هذه الشكوك عندما "صحح" المسؤول تصريحه السابق مشيراً إلى أن البيان برمته كان اختلاقاً وليس تمثيلاً للحقائق؛ باعتبار أن الهدف الرئيس وراء ذلك كان "إخافة" الصحفيين وثنيهم عن نقل الواقع؛ ومن ثَمَّ فقد تم تصوير السياسة على أنها حجب للحقيقة، في حين أن الصحافة صورت على أنها باحثة عن الحقيقة.

يمنح هذا الخبر صفة الشهداء للصحفيين، وهو ما يؤكد دور الصحفيين بوصفهم مقاتلين (من أجل الحقيقة) ومستعدين للتضحية بحياتهم من أجل هذا الهدف النبيل.

صحيفة القدس العربي، (9 نيسان، أبريل 2003)

نتج عن هذه الضربة التي قابلها سخط ودهشة عالميين، استشهاد مراسل الجزيرة، الزميل طارق أيوب، بالإضافة إلى مصور وكالة رويترز، وجرح عدد آخر من الصحفيين.

تمت الإشارة إلى مراسل الجزيرة طارق أيوب بصفته "زميلاً"؛ ومن ثَمَّ فقد تم وضع جميع الصحفيين ضمن بوتقة "جماعة" واحدة. وهذا يحدث عندما تتم مخاطبة إحدى المجموعات بصفتها تشكل جماعة واحدة[19] تتشكل بصورة افتراضية، وذلك بواسطة إضافة "سلسلة من التكافؤ" بين المرتبة التي يتبوأها الشهيد، وبين بقية المجموعة. يقف الصحفيون إذاً صفاً واحداً في مواجهة المؤسسة "اللا عقلانية" (أي السلطة العسكرية) التي تبحث عن وسائل لإسكاتهم. وهذا الأمر يفترض من دون إثارة أي جدل، أن الصحفيين العالميين كانوا موجودين هناك من أجل تغطية الحرب بطريقة محايدة وغير منحازة؛ ومن ثَمَّ تجميل "التدخل المهيمن" في التمثلات الإعلامية النهائية في كل البلدان التي ينتمون إليها.

كان الصحفيون المحليون والأجانب يشكلون جزءاً من هذه "الجماعة التفسيرية"، في الوقت الذي كان الصحفيون يتعرضون للقتل والإصابة؛ وبالرغم من انتمائهم إلى بلدان مختلفة ويعملون في وسائل إعلامية مختلفة، فإنهم كانوا متحدين كجماعة واحدة، أي "كزملاء" يبحثون عن الحقيقة ويدفعون مقابل ذلك ثمناً غالياً. يتفق في الواقع نيك غوينغ من إذاعة BBC العالمية مع مبدأ "الجماعية" عندما يشير

إلى صحفيين آخرين يقومون بتغطية مناطق الأزمات بصفتهم "زملاء" يواجهون الكثير من الصعوبات ("حيث يتعرضون إلى احتمال الفشل في تحقيقاتهم والجر إلى العدالة")؛ بالرغم من أنه يشير إلى مسألة الأمان، وإلى حقيقة أن الصحفيين لم يقوموا بتغطية أي أزمة كأزمة دارفور مثلاً، بالحماسة نفسها التي غطوا بها الحرب على العراق نظراً للوضع الطائفي الصعب في دارفور[20]. سوف أعود في موضع لاحق من هذا الفصل لمناقشة الآراء التي أدلى بها غوينغ.

إضافة إلى ذلك، يُعَدُّ التعرض للموت في سبيل البحث عن الحقيقة جزءاً لا يتجزأ من طبيعة مهنة الصحفي:

صحيفة الحياة (9 نيسان، أبريل، 2003)

هناك ضريبة لا بد من دفعها في كل الحروب، وتقوم المؤسسات الإعلامية في كل سنة بتعداد ضحاياها من شهداء الحقيقة، الشهود على مآسي الناس الأبرياء التي دمرت حياتهم الآلة الحربية العمياء ونارها الغاضبة. لكن ما حدث بالأمس في بغداد كان مختلفاً. فالزملاء الثلاثة، طارق أيوب (مراسل الجزيرة) واثنان من المصورين التابعين لوكالة رويترز والتلفزيون الأسباني لم يقعوا شهداء بنيران صديقة، أو بسبب أخطاء فنية. قال أحد الصحفيين الأجانب إنه رأى المدفعية الأمريكية توجه فوهاتها باتجاه فندق ميريدان فلسطين في بغداد، وتطلق النار أولاً باتجاه ردهة الاستقبال، وبعد ذلك على مكاتب قناة الجزيرة القطرية إضافة إلى مكتب قناة أبو ظبي.

إضافة إلى حتمية الاستشهاد بسبب الأخطاء الناجمة عن عدم اتباع قواعد الحماية على سبيل المثال، فإن هذه الحادثة تختلف عن مثيلاتها بمعنى أن التقرير الإخباري المذكور أعلاه استند إلى شهادة أحد "الصحفيين الأجانب" كدليل على أن إطلاق النار كان مقصوداً، والتأكيد على دور الصحفيين كمعادين للسلطة السياسية التي تستهدفهم من أجل إسكاتهم.

"الاستشهاد" في سبيل الحقيقة يُعَدَّ جزءاً لا يتجزأ من مهنة الصحافة؛ وهو ثمن لا بد من دفعه وتعداد ضحاياه "سنوياً". يمثل الصحفي هنا دور "شاهد العيان على مآسي الناس الأبرياء"، الذي يجب أن توضع شهادته في إطار من الثقة[21]. يأخذ الصحفيون إذاً على عاتقهم مهمة شرعنة شهادتهم كجزء من عملية تجميع "رأس المال الثقافي والرمزي" في ميدان يتصف بالتنافسية الشديدة. تتعزز هذه المرتبة أكثر فأكثر على القنوات الفضائية كقناة الجزيرة، حيث يميل الصحفيون فيها إلى الظهور على الشاشة، وهم يرتدون سترات واقية وخوذات عسكرية عندما يقومون بتغطية ما يجري في مناطق ساخنة مثل لبنان (بسبب الأزمة الراهنة)، أو أفغانستان؛ ومن ثَمَّ فهم يظهرون على شكل "أبطال" جدد يتحملون المشاق من أجل إظهار الحقيقة.

تميل صحيفتا الحياة والشرق الأوسط كما أسلفنا إلى تقديم نفسيهما من خلال التأكيد على شبكة مراسليهما؛ وهو دور تعزز أكثر فأكثر في القنوات الفضائية كقناة الجزيرة، حيث يلعب الصحفي دور المعلق على

الأخبار والمقيّم لها. ففي اليوم التالي لسقوط بغداد على سبيل المثال، بثت قناة الجزيرة في نشرة الأخبار الرئيسة تقريراً من العاصمة العراقية، بغداد، أقوم بنقله هنا بشكل مستفيض من أجل إعطاء مثال على السلطة (الجديدة) التي يتمتع بها الصحفي كشاهد عيان، وكمقيّم للخبر:

> لا يوجد مشهد آخر يفوق نهاية هذا المشهد. فمعركة فندق فلسطين، أو آخر مشاهد الحرب الأمريكية - البريطانية على العراق، لم تستخدم الصواريخ والقنابل، ولم تسفك فيها الدماء، كما حدث يوم الثلاثاء الأسود [عندما قتل بعض الصحفيين، وجرح بعضهم الآخر]. بين الأمس واليوم، يبدو أن كثيراً من الأمور قد تغيرت، وأن الصحافة لم تعد العدو رقم اثنين لجنود المارينز، في الوقت الذي انتقل المشهد من التخريب الأمريكي إلى النصر الحتمي. فقد أحاطت المدفعية الأمريكية فندقاً يتجمع فيه صحفيون ومراسلون لمعظم المؤسسات الإعلامية العالمية التي لم يكن لها هدف من ذلك التجمع سوى نقل رسالة إلى العالم فحواها أن الأمريكيين قد احتلوا قلب بغداد[22].

يسرد الصحفي هنا حكاية ذات خلفية تتكون من مشهد تمثال صدام وهو يهوي كرمز لسقوط بغداد والنظام السابق. يطرح الصحفي تساؤلاً حول المؤسسات الإعلامية الأخرى التي تتحلق حول القوات الأمريكية لمساعدة هذه الأخيرة على نقل هذه الرسالة إلى العالم؛ ومن ثَمَّ فهو يضع مسافة بين قناة الجزيرة من ناحية كمؤسسة إعلامية "محترمة"، والمحطات الإعلامية الأخرى التي وقعت في الفخ الأمريكي،

من ناحية أخرى. مع ذلك، يبقى أن كرامة المهنة الصحفية لا تشوبها شائبة من خلال الإشارة إلى "يوم الثلاثاء الأسود"، وهو اليوم الذي قتل فيه وجرح ثلاثة من الصحفيين من ثلاثة بلدان مختلفة يقيمون في الفندق نفسه. كما تم تصنيف الصحافة على أنها "العدو رقم اثنين لجنود المارينز"؛ ومن ثَمَّ فقد تم تعزيز دور الصحفيين بصفتهم باحثين عن الحقيقة، وأيضاً بصفتهم شهداء. يؤدي الصحفي هنا دور المراقب والمقيّم للتقدم الذي أحرزه في الحرب، الأمريكيون (الذين انتقلوا من مرحلة "التخريب إلى النصر الحتمي").

إضافة إلى ذلك، يعمل الصحفي هنا كمراقب يقدم للجمهور وصفاً للمشهد. في الحقيقة، حتى كلمة "المشهد"، تعزز دور الصحفي كوسيط يعيد بناء مشاهد الحرب؛ وهذا الفعل في حد ذاته، هو مزج بين الأحداث الواقعية والعناصر التخيلية. باختصار، يبدو أن مجموعة من هذه الجماعة التفسيرية من الصحفيين وقعت فريسة للهيمنة السياسية الأمريكية؛ ومع ذلك، فإن الجماعة بصفتها كتلة واحدة، تم تأطيرها داخل الإطار نفسه بالإشارة إلى يوم الثلاثاء الأسود، وهو ذكرى سقوط شهداء الحقيقة في مهنة الصحافة.

وهكذا، يظهر التحليل الذي قدمناه آنفاً، ثلاثة أدوار مختلفة:

1 - الصحفي بصفته مشاهداً؛

2 - الصحفي بصفته مدققاً / أو كلب حراسة؛

3 - الصحفي بصفته شهيداً.

بينمـا تؤكد اثنتـان من الصـحف المهاجرة هما الأهـرام والقدس العربي بشدة على الدور الأول، فإن اثنتين أخريين، هما الحياة والشرق الأوسـط، تسـلطان الضـوء على الدور الثاني. مع ذلك، تتفق الصحف الأربـع، ومعها جميع المنافذ الإعلامية الأخرى، على الدور الثالث الذي يضع الصـحفيين جميعاً ضمن بوتقة واحدة، على الرغم من التباينات الثقافية فيما بينهم.

نستنتج مما سـبق أن التحليل الآنف الذكر كان المقصود منه إبراز الأدوار التي يلعبها الصـحفيون بصـفتهم جماعة تفسـيرية، في توثيق الأحـداث، والتنقيـب عن الحقيقة، حتى لو أدت بهـم مثل هذه المهمات إلى "الاستشـهاد" في سـبيل تحقيقهـا. تتركز هـذه الأدوار حول اثنين من المؤشـرات التعريفيـة وهذان المؤشـران هما المعرفـة (أي المراقبة والتوثيق) والحقيقة (أي القيام بدور المشاهد والمحقق)، وهما مؤشران يمكن اختصارهما في الرسم 1.6.

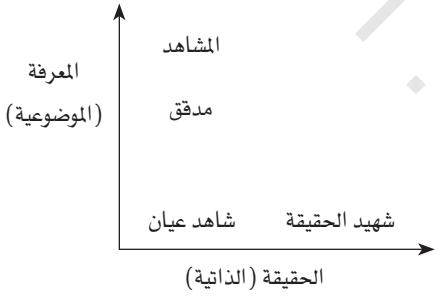

الرسم 6.1 توزيع الأدوات الصحفية

openkanal.com

يمثل محور "المعرفة" المهمات الموضوعية التي تتعلق بمراقبة الواقع وتوثيقه، بينما يمثل محور "الحقيقة" المهمات الذاتية التي تتعلق بمعاينة الأحداث والبحث عن الحقيقة. ويُعَدُّ محور الحقيقة النتاج المهجن الناجم عن المزج بين الممارسات الصحفية الأنجلو- أمريكية. أما دورا شهيد الحقيقة وشاهد العيان فإنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بجوهر سرديات الصحافة كمهنة، وهي ما يتقاسمها أفراد هذه المهنة في العالم أجمع.

من ناحية أخرى، يمكن التأكيد هنا على أن محور المعرفة يمثل الدور الذي يقوم به الصحفيون والذي يرتبط به "رأسمال ثقافي ورمزي" له أهميته الخاصة. هذه هي الأدوار التي تميز الصحفيين على الصعيد العالمي، حيث يتمتع بعضهم برأسمال أعلى مما يتمتع به البعض الآخر. بالمقابل، يقرر كم رأس المال هذا حجم السلطة الرمزية من المصداقية التي ترتبط بالمؤسسات الإعلامية والصحفيين العاملين كمراقبين دقيقين لمجريات الحقائق. على سبيل المثال، تُعَدُّ كل من وكالة رويترز ووكالة APF مصدرين من مصادر المعلومات الموثوقة (وكذلك في الحقيقة) صحيفتا الأهرام والقدس العربي. يمثل هذا المحور أيضاً الصراع من أجل اكتساب المصداقية بين وسائل الإعلام الإقليمية والمحلية من ناحية، وبين المحطات الإعلامية العالمية، من جهة أخرى؛ وهو صراع من أجل إعادة تحديد موقع ما هو محلي وما هو إقليمي في المشهد الإعلامي العالمي. على سبيل المثال، لم تشر صحيفة الأهرام أو صحيفة الشرق الأوسط إلى الوكالات الأجنبية، لأنهما فضلتا التركيز

على الخطوط الثانوية التي بث عليها الصحفيون التابعون للصحيفتين، والتأكيد على دور هاتين الصحيفتين كجامعتيْن للأخبار. من الواضح أن الهويات المذكورة أعلاه لا تمثل توزيعاً مثالياً للأدوار؛ لأنها تتداخل وتتنافس فيما بينها بحسب نوع الأحداث التي يتم نقلها.

تُظهر "جماعة الصحفيين التفسيرية" نوعاً من السلطة الهرمية[23]، مثلها في ذلك مثل أي ميدان اجتماعي آخر. يشير نيك غوينغ من محطة BBC العالمية على سبيل المثال، إلى الصحفيين في أنحاء العالم كافة باعتبارهم "زملاء"، وهو يؤكد من خلال ذلك هوية مشتركة تجمع بينهم، في الوقت الذي يُذكّرنا بالهرمية الموجودة داخل هذه السلطة:

> الناس الذين يشاهدون قنوات الجزيرة، والعربية وأبو ظبي والكويت في أمكنة مثل منطقة الخليج، يرعون الماشية أيضاً، وهم يلجئون أيضاً إلى محطة BBC لأنهم يقولون إنهم يودون الاطلاع على حقيقة ما جرى فعلاً... لكن الدليل القصصي الذي بدأنا في الحصول عليه، حتى عن طريق الراديكاليين في الشرق الأوسط... يدل على أنهم يستوعبون بطريقة خاصة الطرق الراديكالية في تفسير الأخبار. لكنهم يلتفتون مع ذلك، إلى وجهات أخرى من أجل الحصول على آراء مختلفة حول الأخبار التي يتلقونها. يوجد هناك نسيج مختلف جداً، ولذلك لا تتعاملوا مع الأمر بمثل هذه البساطة[24].

بحسب رأي بوردو[25]، يمكن مقارنة الفضاء الاجتماعي بالفضاء الجغرافي؛ ومن ثَمَّ فكلما اقترب الصحفيون من بعضهم بعضاً ضمن

obeikandl.com

فضـاء واحـد يجمع بينهم، ازدادت الملامح المشـتركة فيمـا بينهم. مع ذلك، "فإن الحقيقة حول أي شـكل من أشكال التواصل لا يمكن إيجاده كليةً ضمن منظومة التواصل التي تكشف عن نفسها وتضع نفسها تحت المراقبـة." يشـير بوردو بشـكل خاص إلى مـا يطلق عليه "تصـنيفات التفـوق"[26]، أو التصـنيفات التي يتم تطبيقها عندما ينكر الصـحفيون القابعون في موقع أعلى وجود مسـافة تفصـلهم عـن آخرين يقبعون في موقع أدنى؛ بالرغم من أن هذه المسافة تبقى على حالها من دون تغيير. إذاً، ينكر نيك غوينغ وجود اختلاف يفصـل بين الصـحفيين في أنحاء العالم كافة؛ إلا أن هذه المسـافة مع ذلك، لا تختفي. يعترف من ناحية، بدور الصحفيين الآخرين (العرب، على سبيل المثال) كجزء من جماعة الصـحفيين العالمية؛ لكنه من ناحية أخرى، يؤكد الاختلافات الموجودة بـين الصـحفيين اسـتناداً إلى مواقعهـم في هرمية السـلطة الإجمالية الموجـودة في هـذا الميـدان الخاص (أي، مَـن مِن بين هـؤلاء يحوز ثقة المشاهدين).

تهـدف المناقشـة المذكـورة أعـلاه إلى المسـاهمة في الحـوار حول الفضـاء العالمي العام ودور وسـائل الإعلام في تنظيمه وإجرائه. هناك عاملان حاسـمان في هذه المناقشة: 1) السـلطة التي تتمتع بها وسائل الإعـلام العالميـة (في أعلى الهرمية الصـحفية)، و2) التناقض الذي يشـعر به زملاؤهم (الذين يقبعون في مواقع أدنى في تلك الهرمية) في الـدول النامية تجاه مثل هذه الوسـائل الإعلامية. دعـوني الآن أناقش بدقة هاتين النقطتين.

أولاً، يمكن التأكيد على أن كل ميدان من الميادين العربية سواء في مجال وسائل الإعلام أو السياسة، يستنبط سلطته من موقعه مقابل الميادين الغربية المشابهة. نحن ميالون إلى التفكير في أن وسائل الإعلام العربية تعبر عن الرأي العام وتؤثر فيه من خلال علاقة عرضية. لكنني أود التأكيد هنا على أن الثقة والصورة الإيجابية لوسائل الإعلام تعتمد على الرسالة من جهة، وعلى موقع ناقل الرسالة في الميدان، من جهة أخرى. هنا أصبح رأس المال الثقافي لوسائل الإعلام الغربية في واقع الأمر مُطبّعاً بحيث يمكن استخدامه كوحدة قياس يمكن أن تقاس بواسطتها وسائل إعلامية أخرى في الدول النامية.

يشير منتقدو فكرة الفضاء العام الهابيرماسية إلى الصيغة المثالية للفضاء العام الذي تؤطّر ضمنه المرتبة الاجتماعية، ويمكن للمرء أن يزيد على ذلك أن الفضاء المعياري العالمي يؤطر بشكل موازٍ رأس المال الثقافي الذي يمتلكه كل واحد من المشاركين في المؤسسات الإعلامية. يُعَدُّ مثل هذا الفضاء العالمي حلبة صراع حول مبدأ الشرعية، وكذلك حول الحضور في المشهد الإعلامي العالمي. يتبوأ الصحفيون العاملون في وسائل إعلامية عالمية موقعاً متقدماً في هرمية السلطة هذه، حيث استطاعوا جعل الحقيقة والمعرفة مشروطة بالخطاب، وبالمؤسسات التي تنتج مثل هذا الخطاب. الفضاء العام ليس مجرد حلبة يتم فيها تشكيل الرأي العام وحسب، بل يستخدم كذلك، من أجل تشكيل الهويات الاجتماعية. كما أننا ننفي وجود أي توتر بين الصحفيين عندما نصورهم كجماعة "تفسيرية" موحدة.

obeikandi.com

ثانياً، يتسم الدور الهجين للصحفيين بالتناقض مع وسائل الإعلام الغربية في أوساط المهنيين الإعلاميين (وكذلك في أوساط المشاهدين). أشارت صحيفة الأهرام بشكل مباشر إلى بعض المحطات الإعلامية الإخبارية الغربية من أجل إضفاء المصداقية والشرعية على بعض التصريحات السياسية؛ في حين أن صحفاً أخرى مثل صحيفة الحياة لا تطبق مثل هذه الإستراتيجية. يظهر مثل هذا العمل أيضاً في قنوات فضائية جديدة مثل قناة الجزيرة التي أصبح مراسلوها المصادر الرئيسة للأخبار. مع ذلك، يبدو أن قناة الجزيرة تقر بمصداقية محطة BBC في الوقت الذي تشكك بموثوقية محطات تجارية أخرى مثل محطة Fox News[27]، مشيرة على وجه الخصوص إلى الانتقاد الذي وجهته محطة Sky News لمحطة BBC؛ لأن هذه الأخيرة امتنعت عن استخدام تعبير "إرهابيين" في وصفها للأشخاص المتهمين بالإرهاب.

هذا التناقض شائع أيضاً في أوساط الباحثين العرب؛ ففي تحليله لفضيحة التعذيب في سجن أبو غريب على سبيل المثال، يعتمد كفّاف[28] على الاقتباس من وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية مثل محطة CBS وصحيفتيّ واشنطن بوست ونيويورك تايمز باعتبارها المؤسسات المسؤولة عن إثارة النقاش حول التعذيب الذي تعرض له السجناء العراقيون؛ ولكنه يرى مع ذلك، أن توقيت النشر كان يشكل جزءاً من تعاون وسائل الإعلام مع السياسيين، خصوصاً السياسيين الجمهوريين، في أثناء الانتخابات الأخيرة.

خاتمة

عموماً، يساهم التحليل المذكور آنفاً في تحويل عبارة مهمة تستخدم في الأبحاث التي تجري حالياً في مجال الاتصالات، وهي "الهيمنة" إلى مفهوم؛ وتأثير هذه العبارة في عملية الوساطة التي تُعَدُّ أساساً متيناً للحوار العام. الهيمنة ليست عملية مباشرة، كما يفترض بعض الباحثين العرب[29]، حيث تمارس بعض وكالات الأنباء العالمية نفوذها فيما يتعلق بمحتوى الأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام الإخبارية العربية المحلية؛ وهو رأي ينكر وجود علاقات سلطوية. يمكن للهيمنة أن تكون فاعلة من خلال سلطة لم يتم توزيعها بشكل متساوٍ بين الصحفيين الذين ينتمون إلى الجماعة نفسها. وهكذا، يمكن تطبيع دور الصحفيين وتعزيزه في المجال المحلي للصحافة ودورها في المجتمع، كما هي الحال في وسائل الإعلام العالمية مثل محطتيّ CNN و BBC. إن الاستشهاد بما أوردته وسائل الإعلام الأجنبية كما هو مبين سابقاً، يشكل جزءاً من إستراتيجية الصحف التي تقضي بتصنيف نفسها والتمييز بينها وبين الصحف المحلية التي تميل إلى الاقتباس من تصريحات المسؤولين المحليين.

لا يشير هذا إلى احتمال العودة إلى النظرية الماهيوية حول الهيمنة من منظور احتمال قيام هذه الأخيرة بإلغاء كامل للأصالة الصرفة[30]. الهدف الحقيقي الذي أنشده يتمثل في استيعاب علاقات السلطة ضمن الهويات الهجينة الظاهرة في المشهد الإعلامي العالمي. وكما يذكرنا غيدينز[31]، فإن السلطة ليست بالضرورة مرادفة للإجبار أو القسر؛ بل يمكن أن ترتبط بمفهوم الاعتماد المتبادل. تعمل السلطة إذاً ضمن علاقة جدلية بالرغم من التوزيع غير العادل للسلطة بين مختلف الصحفيين. لا أقترح في هذا المجال تطوير نوع من الفعل ضد مثل هذه الممارسات. إن هدفي يكمن فقط في إبراز الكيفية التي تنتشر فيها السلطة في ميدان الصحافة؛ ذلك أن تحليل وسائل الاتصال يبقى ناقصاً من دون استيعاب مفهوم السلطة.

من المهم أيضاً التدقيق في الموقف المتناقض تجاه وسائل الإعلام الغربية بين المشاهدين العرب، كما يؤكد دالغرين: "لا يبدأ الفضاء العام وينتهي عندما يصل المحتوى الإعلامي إلى المشاهدين. ليست هذه سوى حلقة واحدة من سلاسل في مجالات الاتصالات والثقافة، التي تتضمن الكيفية التي يتم فيها تلقي المُخرج الإعلامي واستيعابه واستخدامه من قبل المواطنين"[32]. تبين الدراسات التي أجريت على المشاهدين المهاجرين في بريطانيا على سبيل المثال، أن المشاهدين الفلسطينيين لا يظهرون سوى قدر قليل من الثقة بوسائل الإعلام العالمية مثل محطة BBC في الوقت الذي تولي ثقة كبيرة بوسائل الإعلام الإخبارية العربية القومية كقناة الجزيرة[33]، بالرغم من

حقيقة أن محطات إعلامية مثل محطة BBC كانت موضع ثقة جماهير المشاهدين في منطقة الشرق الأوسط كمصادر إخبارية[34]. إضافة إلى ما تقدم، يظهر الاستطلاع الذي أجراه مركز الدراسات الإستراتيجية في الجامعة الأردنية سنة 2005 أن العرب المستطلعة آراؤهم يقرون بأن القيم الإيجابية في المجتمعات الغربية لا تجد لها طريقاً إلى سياساتها الخارجية. كانت وسائل الإعلام الغربية تلك موضع ثقة وذات مصداقية بالنسبة للمستَطْلَعَة آراؤهم على الأقل فيما يتعلق بالمملكة المتحدة وفرنسا بالرغم من أن من أجري عليهم الاستطلاع لم يظهروا سوى قدر قليل من المعرفة بالحياة الثقافية في المجتمعات الغربية الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية.

إذاً، ما هي الخطوة التالية، بعد أن وصلنا إلى هنا؟ يمكن التأكيد على أن تحليل آلية الفضاء العام في السياق العربي يجب أن يتم على مستويين:

1 - على المستوى العربي- العربي، من أجل تحليل إستراتيجيات الشرعية والهرمية والثقة، كما تم توزيعها على المؤسسات الإعلامية العربية، وكما تمثلت في مواقف المشاهدين من وسائل الإعلام هذه.

2 - على المستوى العربي- الغربي، حيث إن من المهم تحليل الهرمية وعلاقات السلطة بين مختلف الممثلين الإعلاميين الإقليميين والعالميين مقابل الرأي الذي يرى أن الفضاء العالمي خالٍ من المركز أو الهيمنة.

openkandil.com

إذا أظهر التحليل المشار إليه آنفاً انتشار الأصوات الإعلامية الغربية في النصوص الإخبارية العربية، فإن على الدراسات المستقبلية أن تبحث في الاتجاه المعاكس؛ أي قبول صورة وسائل الإعلام العربية وصوتها في السياق الغربي: أي متى يمكن الاستشهاد بوسائل الإعلام العربية، ولأي غاية؛ على سبيل المثال، إبراز ردة الفعل على التصريحات السياسية الغربية، وإظهار ردة فعل "الشارع" العربي عليها. إذا كان لوسائل الإعلام الغربية أن تكون لها أي مصداقية، ومن ثَمَّ أن يكون لها "رأسمال ثقافي" معتبر، فيجب أن يطرح السؤال التالي: ما هي صورة الإعلام العربي متمثلة في القنوات الفضائية، في الإعلام الغربي؟ هناك عدد من الدراسات حول صورة العرب (التي قدمت على أنها تمثل مجموعة واحدة متجانسة!) في السينما[35] والأخبار[36] الأمريكية، إلا أنه ليست هناك حاجة لتفكيك هذه الصورة الواحدة إلى مجموعات محددة من أجل إظهار كيف يتم تصوير هويات اجتماعية محددة كالصحفيين مثلاً، على هيئة مثيري الشغب، والقلاقل، أو مهنيين، أو ملتزمين بميول الناس وانفعالاتهم.

obeikandl.com